

لست يا سيدي من الصخر

شعر / محمود مفلح

قال والقلب عاتب واللسان أين منك الهوى وأين الحسان
أين دفء اللقاء أين المواعيد وأين العشاق والألحان
أين في الروض شقائق العصفير إليها تسافر الأغصان؟
تشرّف الشعر منذ عشر وعشر وعلى الرمل تنبت الأحزان

كيف يا سيدي يغرد شعري وبصدري من الأسى بُرْكان
لا أنا صخرة فالتزم الصمت ولا بأقل فيغيبا اللسان
فصراخ الأطفال يقرع سمعي والأيامي يسوطها الجرمان
والملايين سُردت والعذازي ذاهلات يروعهما الحدثان

تتلوى من العذاب سراييفو وتبكي وما لها أجفان
أكلتها النيران من كل صوب وتمادت في غيها الصلبان
واستحلوا محارم الله فيها لا ضمير ينهي ولا وجدان
ذنبها أنها تسبح لله ويُنلى في أرضها القرآن

تعبّد الله وحده أو ترضى بعد هذا أن تعبد الأوثان؟
وإذا هانت العقيدة فاعلم إنما أهلها الأشاوس هانوا!

وقف العالم الكتيب كتيباً وعليه الصغار والخدلان
هو أعمى أم أنه يتعمى أين إحساسه وأين اللسان؟
أعلى المسلمين يصبح ليثاً وعلى الضرب واليهود جبان
كيف لا يبصر المجازر ترى والضحايا كأنها الخرفان

وإذا هم بالقرار تأبّت كل أوراقه وعقّ البنان
ووعود قد أخلفتها وعود وكلام كأنه الهذيان
أصبح الشجب في السياسة مدحا فهيننا يا أيها القراصان

ترجف الأرض حين يسقط فرد من يهود ويوفر البركان

والصليبي حين يقتل سهواً مسلّم ذلك القتل فماذا
مسلمات تلك النساء فماذا والمحاريب هذه مسلمات
وهنا القدس أرهاقتها يهوداً يستبيح اليهود أرضا وشعبا
هي بنت الإسلام والشعب شعب لا وربّي إن اليهود غثالة

أسلام وفي الزنازين شعب أسلام والمبعدون عراة
كم يعاني في قيده المسجد الأقصى جثّ تملا الشوارع يا قوم
أعليهم تلك الدماء الغوالي شهد الله أن ذلك عبث

لست يا سيدي من الصخر إني مسلّم صاغ قلبه الإيمان
أنا أبكى على الأخوة في اللّك وقد هدّ ركنها الضعيفان
أنا أبكى على المسودة في القربى وقد مدّ جبلها الرحمن

يا أحياءنا الشباب لأنتم جبلنا الوعد فاستقص يا زمن
أنتم شعللة القيس وأنتم أنتم الصادقون في زمن الريف
أنتم الغيث حينما تجذب الأرض وأنتم من فوقها العبدان

تملاككم المادّن في القدس وترىكم اليكم نسطران

عقريات العقاد الإسلامية في عيون الناقدين

د. جابر قمبيحة



العقاد

عاش عباس محمود العقاد قرابة ثلاثة أرباع قرن (٢٨ يونيو ١٨٨٩ - ١٣ مارس ١٩٦٤م) غذى المكتبة العربية خلالها بما يزيد على مائة كتاب، زيادة على آلاف من المقالات والبحوث نشرت في الصحف والمجلات.

ويعد العقاد نموذجاً نادراً «للعصامية العلمية» في العصر الحديث. فهو لم يحُصل في حياته إلا على الشهادة الابتدائية، ولكنه استطاع أن يقرأ بنهم شديد، ويحصل «بالتنقيف الذاتي»، ما لم يحصله أصحاب أرقى الشهادات وأعلىها، فلا عجب أن يغزّر عطاؤه، وأن يتعدد إنتاجه ويتنوع، فيضرب بقلمه في شتى المجالات والموضوعات: من أدبية وسياسية واجتماعية وتاريخية وفلسفية.

وجاءت كتبه في التراجم والسير قرابة أربعين كتاباً، من أشهرها ما كتبه عن الأنبياء وعظماء الإسلام، وجاءت بترتيبها التاريخي على النحو التالي:

تجري مجرى المجاملة التي تقتضيها الأعراف، وليست كذلك من قبيل «عبادة الأبطال»، ولا من قبيل «التزويق الفني» «فتجميل الصورة شيء، وتوقير صاحبها شيء آخر، فإنك لو صورت أبا بكر فرفعت صورته مكاناً علياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله، أو غير ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها، فهذا هو التوقير الذي لا يخل بالصورة، ولا يعاب على المصور، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضل الناظر عن الحقيقة» (٤).

وانطلاقاً من هذا التوقير يفسر العقاد كل الهنات العارضة التي علفت بمعجم العظماء؛ لأن:

من ركب الهائل من أمّره فعذره في ذلك المركّب كما تصدى العقاد لمفتريات أعداء الإسلام، والشبهات التي أثاروها، وأخذ يفندوها بعارضة قوية وحجة نافذة.

أما «مفتاح الشخصية» فاصطلاح عقادي، لم يستخدمه أحد قبل العقاد - فيما أعلم - وعاش مغرمًا باستخدامه حتى في دراساته المقالية أو الفصلية عن الشخصيات (٥). ومفتاح الشخصية ليس بوصف لها، ولا بتمثيل لخصائصها

عمر» . . . ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأبناء، ولكنه وصف له، ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق، وحقائق الحياة» (٢).

وفي سبيل ذلك نجد العقاد يخالف «المنهج السردى» في كتابة التراجم من ناحيتين:

الأولى: الناحية الترتيبية: فهو لا يلتزم ترتيب وقائع الحياة من المهد إلى اللحد، بل يقدم ويؤخر فيها تبعاً لمقتضيات منهجه الذي اشتهر «بالمناهج النفسية».

والثانية: الناحية التقديرية أو التقييمية: فقيمة «الحدث» في نظره لا ترتبط بضخماته وتوجهه وامتداده الزمني والمكاني، بل بقدر ما يعكسه من دلالات وقيم وأبعاد إنسانية ونفسية (٣).

ولعل من أهم ما يشد النظر في عقريات العقاد أمران:

الأول: توقير الشخصيات. والثاني ما سماه العقاد بمفتاح الشخصية: فتوقير العظماء من أمثال أبي بكر وعمر وخالد لازمة من لوازم العقريات كلها يحرص العقاد عليها، وهي لا

- ١ - عقبرية محمد (١٩٤٢) ٢ - عقبرية عمر (١٩٤٢) ٣ - الصديقة بنت الصديق (١٩٤٣) ٤ - عمرو بن العاص (١٩٤٤) ٥ - أبو الشهداء: الحسين بن علي (١٩٤٥) ٦ - داعي السماء: بلال بن رباح (١٩٤٥) ٧ - عقبرية خالد (١٩٤٥) ٨ - الشيخ الرئيس ابن سينا (١٩٤٦) ٩ - عقبرية الإمام (١٩٤٩) ١٠ - عقبرية الصديق (١٩٥١) ١١ - القائد الأعظم محمد علي جناح (١٩٥٢) ١٢ - عقبرية المسيح (١٩٥٣) ١٣ - فاطمة الزهراء والفاطميون (١٩٥٣) ١٤ - ابن رشد (١٩٥٣) ١٥ - أبو الأنبياء الخليل إبراهيم (١٩٥٣) ١٦ - ذو النورين: عثمان بن عفان (١٩٥٤) ١٧ - معاوية ابن أبي سفيان في الميزان (١٩٥٦) ١٨ - الرحالة لك: عبد الرحمن الكواكبي (١٩٥٩) ١٩ - الشيخ محمد عبده (١٩٦٣).

وفي هذه التراجم - وخصوصاً «العقريات الإسلامية» لا يعطينا العقاد «سيرة الرجل العظيم» إنما يعطينا «صورته الإنسانية» بكل ملامحها وسماتها، وهو يصدر عقرياته دائماً بقوله إنها ليست تاريخاً لمن يطلبون التراجم والتاريخ. فيقول في مقدمة «عقبرية الصديق» «إنني لا أكتب ترجمة للصديق - رضي الله عنه - ولا أكتب تاريخاً لخلافته وأحداث عصره» (١). وكتابه في «عقبرية

ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخالها ولا تزيد» (٦).

— فمفتاح شخصية أبي بكر هو «الإعجاب بالبطولة» (٧).

— ومفتاح شخصية عمر هو «طبيعة الجندي» (في أخلاقه الوازنة الحاكمة) (٨).

— ومفتاح شخصية خالد هو طبيعة الجندي (في أخلاقه الدافعة الهاجمة) (٩).

— ومفتاح شخصية علي هو «آداب الفروسية» (١٠).

والعقاد بثقافته الموسوعية يوظف علوم العصر وثقافته القانونية والنفسية والاجتماعية والقواعد والمعارف العسكرية والأدلة العقلية والمنطقية في عرض مختلف القضايا ومناقشتها، وربط الأسباب بالمسببات، واستخلاص الأحكام والخلوص إلى النتائج التي يراها حاسمة؛ لأنها تعينه على تحديد ملامح الصورة وتشخيصها.

والتزاماً بموضوع هذا المقال وعنوانه نكتفي بهذه الخلاصة المركزة لأهم خطوط «المنهج النفسي» الذي أخذ العقاد نفسه به في هذه التراجم (١١). لتقف وقفة متأنية مع آراء الآخرين في هذه التراجم، ثم نعرض رأينا فيما كتب وفيما كتبوا...

لقد تعرض العقاد للنقد الكثير فيما كتبه من تراجم، وخصوصاً ما كتبه عن عظماء الإسلام. وباستعراض هذا النقد يمكن تصنيفه في ثلاثة أنواع:

١ - نقد الدوافع

٢ - نقد المنهج والطريقة - وهو ما

يمكن أن نسميه بالنقد الخارجي أو الشكلي.

٣ - نقد المضامين والأفكار والقضايا والأخبار والروايات، وهو ما يمكن أن نطلق عليه النقد الداخلي أو الموضوعي.

أولاً : نقد الدوافع

يرى الكاتب رجاء النقاش أن العقاد لم يلجأ إلى الكتابات الدينية بعمامة، والعبقريات الإسلامية بخاصة إلا لدوافع وبواعث سياسية نفعية؛ إذ أن العقاد بعد أن استقال من حزب الوفد - وهو حزب الأغلبية - أحس أنه خسر جماهيرياً، فوجد أن الدين هو البديل الذي يوصله إلى قلوب الجماهير، فكتب العبقريات «... فارتدت إليه بصورة مضاعفة - عندما دخل حظيرة الإسلام والكتابات الدينية - مكانة لدى الجماهير فاقت مكانته الأولى أيام كان كاتب الشعب الأول في

مرحلة ثورة ١٩١٩ الوطنية» (١٢).

وهو لتعليل غير صحيح - في نظرنا - لعدة أسباب أهمها:

١ - أن شخصية العقاد عاشت على الفردية والاستعلاء، ولم يكن يهتم بالجماهير ولا بالمكاسب الشعبية، فهو أكثر كتابنا استمعالاً لبعض الكلمات الحادة للدلالة على الجماهير ونفسيتهام مثل: «الدهماء» و«الغوغائية الخ...» (١٣).

٢ - في سنة ١٩٤٠ تحدى العقاد مشاعر الجماهير المصرية بإصدار كتابه «هتلر في الميزان»، وفيه يهاجم هتلر هجوماً صارياً، في وقت كانت المشاعر المصرية والعربية تتعاطف فيه مع ألمانيا وهتلر.

٣ - بدأ العقاد كتاباته الدينية الجادة بكتابه (النازية والأديان) سنة ١٩٤٠م - أي قبل استقالته من الوفد - لا بالعبقریات الإسلامية التي صدر منها كتابان سنة ١٩٤٢م.

٩٩

هل أسرف العقاد في الدفاع

عن شخصياته بصورة أخرجته

عن الموضوعية !!؟

٦٦

٤ - كانت كتابات العقاد في شتى العلوم والفنون - ومنها العبقريات - كتابات للخاصة، ولم تكن كتابات على المستوى الجماهيري الشعبي، وذلك لطابعها العلمي التحليلي العميق.

٥ - كانت الكتابات الدينية في ذلك الوقت - وبخاصة عن عظماء الإسلام تمثل تياراً دافقاً أسهم فيه الدكتور محمد حسين هيكل بكتبه عن حياة محمد وحياة أبي بكر وحياة عمر - وهو رأس من رؤوس حزب الأحرار الدستوريين، وساهم فيه طه حسين - الوفدي - بكتابه (على هامش السيرة) وتوفيق الحكيم - اللاهزي - بكتابه (محمد) (١٤).

٦ - والعقاد - بعد إصدار عبقرياته لم يحز أي كسب جماهيري سياسي، ولو على مستوى التمثيل الشعبي؛ لأن «الشعبية الجماهيرية» كانت مرتبطة أساساً بعضوية حزب الوفد، لا بالعطاء الفكري العظيم الذي قدمه في العبقريات. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن هذا «الاعتزال

الفكري كان عاملاً مساعداً مهماً - لا في كتابة العقاد عبقرياته فحسب، ولكن في غزارة إنتاجه الذي تعددت ألوانه وأنواعه من تراجم وأدب ونقد وشعر وفلسفة وسياسة.

ثانياً : نقد المنهج

وينتقد سيد قطب - رحمه الله - طريقة العقاد، ويكشف ما تطوى عليه من أخطار ومزالق؛ فهي ليست مأمونة في يد كل كاتب؛ لأن الغلظة الصغيرة فيها تذهب بالصورة كلها، فهي غلظة في سمة إنسانية لا في حادثة جزئية. وحتى في يد العقاد لا تخلو من نقص؛ لأن الشخصية الإنسانية ليست وحدة ثابتة في جميع الظروف والأحوال، فلاكتفاء بالسمات البارزة، والخصائص الكبيرة والحوادث المختارة لا يكفل تصوير الشخصية من كل جوانبها، وفي جميع ملامحها، ولا يضمن لنا صورة من الحياة المتسلسلة للبطل - كما عاشها أول مرة، أي لا يضمن لنا سمة القصة، وهي سمة ضرورية في ترجمة الشخصية» (١٥).

وهو نقد شديد إلى حد بعيد. فأقل غلظة في المادة أو الاستنتاج يشوه ملامح الصورة كلها؛ لأنه لا يمكن عزل الجزء أو العنصر العالط. فالغلط في «المادة» أو «الاستنتاج» في هذا المنهج - وإن بدا جزئياً - يشبه إلى حد كبير ارتعاشة يد المصور بآلة التصوير (الكاميرا) إذ ينتج عن ذلك صورة مهزوزة تائيه الملامح كأنها ليس بينها وبين صاحبها أدنى صلة.

والعقاد في العبقريات وغيرها من التراجم كان يعتمد أحياناً على كلمة عابرة تصدر من الشخصية أو على حدث واحد صغير ويستخلص منه سمة من سماتها وأحياناً سمات ودلالات متعددة. فلو فرضنا أن هذا الحدث موضوع، لا مكان له على مسرح الواقع لأنهار كل ما رتب عليه العقاد من سمات ودلالات، وأساء ذلك إلى «صورة الشخصية»؛ لأنها لا تقبل التفتت والتحيز. بعكس الحال في المنهج السردى التقليدي؛ فالخبر العالط والرواية المشكوك فيها يمكن عزلها وإسقاطها، ويبقى من تاريخ الشخصية، ووفاء حياتها ما يطمأن إليه على سبيل اليقين.

قيادات رشيدة:

وفي نطاق المنهج أيضاً نقرأ أعز نقد أو اتهام وجه إلى العبقريات أو تعميم أدق - أي العقاد

نفسه، وخلاصته أنه لم يكتب هذه العبقريات إلا ليحارب بها تيار المد الإسلامي، ويؤكد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ وأحقته كمحرك له، وليطعن في جدوى تنظيمات المد الإسلامي الجماعية في العصر الحديث، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب في الإسلام ويشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص (١٦).

وهو اتهام ظاهر الوهن؛ لأنه حكم على «نية» خافية لا يعلمها إلا الله، ولم يقدم الكاتب دليلاً على صحة اتهامه. على أننا إذا استقرأنا التاريخ وجدنا أن «الجماعة العظيمة» ما وجدت إلا بوجود «العسكري المحرك العظيم». وهل انتصرت الأمة الإسلامية إلا بفضل القيادات الرشيدة من أمثال أبي بكر وعمر وخالد. وعصور الحصار المد الإسلامي كان من الممكن أن تمتد وتستمر لولا أن قيض الله للأمة «أفراداً عظاماً» من أمثال صلاح الدين وسيف الدين قطز وابن تيمية والعز بن عبد السلام.

ولست أدري بماذا يحكم الكاتب على ما كتبه المستشرقون من مزاعم ومفتريات تصدى العقاد لنقضها في عبقرياته إذا حكمنا على هذه العبقريات بأنها حرب للمد الإسلامي وتشويه لعقيدة المسلم.

ثالثاً: نقد المضامين

يأخذ بعضهم على العقاد التمدح الشديد في الأحكام، وفي التفريق غير المستساغ بين سمات الشخصيات وخصائصها، والتلاعب غير الموفق بالكلمات «فعمر رجل عظيم، والنبى إنسان عظيم، ومعاوية رجل قدير لا عظيم. كل هذا تمحل فارغ يدل على نشاط ذهني، ولكنه نشاط مصطنع، فإن الرجل العظيم لا يكون عظيماً إلا بعنصر الإنسانية فيه. والقدره صورة من صور العظمة، ومن كان كمعاوية في نظر معاصريه أسود من عمر نفسه لا تثبت له القدرة لتفتي عنه العظمة» (١٧).

والواقع أن العقاد كان مولعاً - في سبيل رسم الصورة الإنسانية للشخصية - بالتفريق بين السمات والملايح التي قد تبدو للنظر العاجل متماثلة أو متداخلة، وله في ذلك آيات تشهد له بالقدرة الذهنية والحاسة الفنية الموهقة، ومن ذلك تفريقه بين الطبيعة الجندية الوازعة الحاكمة، والطبيعة الجندية الهاجمة عند كل من عمر وخالد. وتفرقه بين مفتاح الشخصية والصفة الغالبة، وتفرقه بين إعجاب أبي بكر بمحمد

النبى، وإعجاب عمر بالنبي محمد (١٨).

ومن هذا القبيل - في تراجمه الأدبية - تفرقه البارع بين: إمامة الطريقة، وإمامة الصناعة، وتفرقه بين الصدق التاريخي والصدق الخلقي والصدق الفني (١٩).

والعقاد حينما أطلق لفظة «الإنسانية» على محمد، ولفظة «الرجولة» على عمر لم يقصد إلى بيان تعارض أو تناقض بين وصفين إنما قصد إلى إبراز الصفة البارزة في «إنسان» بعثه الله «رحمة مهداة» للبشر، وإنسان كانت القوة والرجولة من أبرز صفاته في مصادمة الرجال والأحداث، فالنبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى، بل لا بد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة (٢٠).

وليس من اللازم أن تكون القدرة صورة من صور العظمة، فقد يكون الإنسان قادراً، ولكنه غير عظيم «وليس من اللازم اللابز أن تقتصر القدرة بالعمل الذي تستطيعه العبقرية لما يتفق

٩٩

وبقيت عبقریات الكاتب

أمام الهجمات الشرسة

ضد الإسلام.

٦٦

أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل» (٢١).

ويعترض بعض النقاد (٢٢) على ما يسميه العقاد «بمفتاح الشخصية» لأن المقياس الواحد، أو الصفة الرئيسية الواحدة لا تكفي، وذلك لتغير مواقف الإنسان في كل الأحوال (٢٣).

فشخصية عمر - على سبيل التمثيل - نمت وتطورت، ولم تثبت على حالة واحدة. وطبيعة الجندي فيه - إن فسرت بعض مواقفه - لا يمكن أن تفسر بعضها الآخر مثل عزل خالد في إبان مجده العسكري، فهذا الموقف يحكمه مقياس آخر غير طبيعة الجندي عند عمر مثل إحساس عمر بالعدالة، أو إشعار جماهير المسلمين المحاربين بأن دورها يفوق دور الأفراد مهما كانت قيمتهم وقدرتهم» (٢٤).

وكلام العقاد في «مفتاح الشخصية» - وإن شابه بعض الغموض أحياناً - يفهم منه أنه غير

الصفة - بمفهومها العام - وهو كذلك غير الصفة الرئيسية التي سماها العقاد «الضابط» (٢٥). فمفتاح الشخصية في مفهومه يكاد يقترب من مفهوم «الغريزة» في خفائها وسيطرتها وقدرتها، وذلك لا يتعارض مع نمو الشخصية وتعدد مراحلها وأطوارها، وقد عاشت «الطبيعة العسكرية» في «عمر» الجاهلية، كما بقيت في «عمر» الإسلام. وإن تغيرت مظاهرها والأشكال التي تجسدت فيها إلى ما يمكن أن يكون تسامياً أو إعسلاً Sublimation.

وأعجب كيف غاب عن الأستاذ النقاش أن عزل عمر خالداً كان عملاً من «الأعمال العسكرية»؛ فعمر هو القائد الأعلى يعزل قائداً من قواده. وعمر - القائد الأعلى يتخذ هذا «القرار» دون أن يستشير فيه أحداً شأن الأوامر والقرارات العسكرية «العليا» في وقتنا الحاضر.

استقرأ ناقص :

ونحن نرى أن أبرز ما يمكن أن نأخذه على العقاد «الاستقراء الناقص» فهو يعتمد - كما عرفنا - على قلة من الأخبار والأحداث، ويستنبط منها السمات النفسية التي يرتب منها «الصورة الإنسانية» للشخصية.

وهو لا شك مزلق خطير؛ لأن الحدث الواحد لا يمكن أن يدل على ملمح نفسي ثابت أصيل، بل لا بد من تواتر الأحداث وأطوارها حتى يصح الاستنتاج، ويسلم الحكم. ومع هذا الاعتبار الأخير يجب أن يستقيم الباعث الدافع مع العمل الذي تطلب منه الدلالة، لأن بذل المال للفقراء - مثلاً - قد يكون وراءه باعث نفسي غير التقوى وحب الإحسان والرحمة والأريحية.

ويرتبط بهذا المأخذ إسراف العقاد أحياناً في الإخلاص لمنهجته إلى حد الاستسلام الذي يكره العلم والمنطق؛ ففي سبيل «رواء الصورة» أو استكمال ملامحها على تسق معين قد يستعين العقاد ببعض الروايات والأخبار الواهية والمرجوحة إذا كان لها من الدلالات ما «يخدم» الصورة، ويبرز لها رواء أسراً وبريقاً أخاذاً، فهو لكي يثبت لعمر بن الخطاب سبقه الحكومات والدساتير الحاضرة إلى قاعدة «إسقاط التهمة عن المذنب لبطالان التنقيش» يورد قصة عمر وكيف تسور حائط بيت ودخله دون استئذان؛ لأنه سمع صوت رجل وامرأة فإذا أمامهما رق خمر، فلما بهرهما على هذه المعصية حابه الرجل بأنهما عصيا الله

المراجع والتعليقات

- (١) العقاد، عبقرية الصديق ٧ (دار الهلال: القاهرة ١٩٥٥).
- (٢) العقاد، عبقرية عمر ٦ (دار الهلال: القاهرة ١٩٦٨).
- (٣) النظر: عبقرية الصديق ٧ - وشوقي صيف مع العقاد ٨٦ (دار المعارف القاهرة ١٩٦٤).
- (٤) عبقرية الصديق ٨.
- (٥) انظر مثلاً كتابه (رجال عرفتهم) ففي الفصل الذي كتبه عن الشيخ علي يوسف يرى أن مفتاح شخصيته (عبقرية) (دار الهلال: القاهرة ١٩٦٣).
- (٦) عبقرية عمر ٧٤.
- (٧) عبقرية الصديق ٦١.
- (٨) عبقرية عمر ٧٦.
- (٩) عبقرية خالد ٢٤٦ (دار الهلال: القاهرة ٥ ت).
- (١٠) عبقرية الإمام ٢٠ (دار المعارف: القاهرة ١٩٥٣).
- (١١) أخذ العقاد نفسه بهذا المنهج - على منيل التعجب - ولكنه تجد في تراجعه بضمت وأخذه لتقاعده المباح الأخرى كالتاريخي والاجتماعي والانضاعي وغيره. ومن ثم نجد أن صلاح عبد الصبور قد حاسبه التوفيق حينما ذكر أن العقاد لم يعط اهتماماً للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والجنسية في صنع العظمى وتكوينه علاقتهم بدعته (مدا) يبقى منهم للتاريخ ٤٣. دار الكتب العربي القاهرة ١٩٦٨).
- وهذا غير صحيح - كما ألمعنا - فالعقد لم يفعل هذه العوامل. وإن كان يصر أن المفسر الأول في صنع العظمى للعوامل والخصائص الذاتية (راجع مثلاً فصل (شئون المجتمع ١٠٨ - ١٢٣) من كتاب العقاد (دور السورين) عثمان بن عفان: دار الهلال: القاهرة ١٩٥٤) وراجع كذلك النصف الأول من كتابه (بالل - دعي السيرة) (مصبغة الاستقلال: القاهرة ٥ ت).
- (١٢) رجاء النقاش - عبد العقاد بين السنين والسنين ٢٠٩ (ط ١ - بيروت ١٩٧٣).
- (١٣) صلاح عبد الصبور - مرجع سبق ٤١ وراجع كذلك إلى ذلك الحوار الذي أجراه العقاد بين أبي العلاء وتلميذه. وفيه يبرز - بكثرة من سواد الأمة لأن أكاديم لا يعقلون - وعلى النقيض يمدى اعترافه وشوقيه - لصيغة أهل الذكر الذين يعجبون (رجعة أبي العلاء ١١٦ ط ٣ بيروت ١٩٦٧).
- (١٤) النظر: أحمد هيكل - تطور الأدب الحديث في مصر ٢٨٥ (دار المعارف: القاهرة ١٩٦٨).
- (١٥) سيد قطب - القاد الأدي - أصوله ومناهجه ١٠٢ (دار الفكر العربي: القاهرة ١٩٤٧).
- (١٦) انظر غزالي النوبة الفكر الإسلامي المعاصر ٢٢٧ - (ط ١ بيروت ١٩٦٩).
- (١٧) إحسان عباس في السيرة ١٦٤ ط ٢ - القاهرة بيروت).
- (١٨) النظر: عبقرية الصديق ٨١.
- (١٩) مدافع العرب - عمر بن أبي ربيعة ١٥٤ ط ٢ - القاهرة ١٩٦٥).
- (٢٠) النظر: عبقرية عمر ١٩٦.
- (٢١) الس ١٨.
- (٢٢) رجاء النقاش - مرجع سبق.
- (٢٣) الس ٢٢٣.
- (٢٤) الس ٢٢٢.
- (٢٥) النظر: عبقرية عمر ١٥٥.
- (٢٦) الس ١٧٦ - ١٧٧.
- (٢٧) عبقرية عمر ٣١٧.

الضرورات التي لا محيص عنها السلامة الدولية الإسلامية. ونقاط الضعف في هذا الدفاع تتمثل فيما يأتي:

١ - أن خالد عزل وهو في عتفوان وقوة انتصاراته، فلم يكن في حياته ومواقفه ما يوحى بانتهاء هذا الدور.

٢ - أن انتهاء هذا الدور التاريخي مسألة ترتبط بعمر أكثر من ارتباطها بخالد، أو بعبارة أخرى كان عزل خالد «عملية إنهاء عمرية»، ولم تكن «عملية انتهاء خالدية» وقد يؤيد هذا التكييف أن أبا بكر ما كان ليُعزل خالد - لو امتد به الأجل! - لأن وجهة نظره في خالد معروفة. وهو القائل عنه «ما كنت لأشيم (لأعمد) سيفاً سله الله على المشركين».

لقد أجهد العقاد نفسه، وحملها من المشاق في الدفاع عن عمر في هذه المسألة بخاصة - ما كان في غنى عنه؛ لأن حق الحاكم في عزل ولاته وقواده كحقه في اختيارهم لا يحتاج إلى دفاع أو تبرير، وهو حق مقرر معروف في الدساتير الحديثة.

ولا يستطيع أكثر الناس عداً لعمر أن يدعى أنه بهذا العزل أراد تحقيق مصلحة ذاتية، أو ضحى بصالح عام للدولة الإسلامية. وربما أراد عمر بحاسته السياسية القديرة أن يغذي الدولة الإسلامية بدماء جديدة في المواقع التي أخذت بأضواء القادة الباهرين. وقد يكون في بقاء خالد في موقعه - وهو أشهر وأقوى قائد في زمنه - حُجُبٌ لكثير من الشخصيات الشابة ذات الإمكانيات القيادية القادرة التي ما كانت تستطيع أن تؤدي دورها القيادي في وجود شخصية قيادية باهرة كشخصية خالد بن الوليد.

إنما يكون عمر في حاجة إلى دفاع مستميت حقاً إذا ما أدى عزل خالد إلى هزيمة الدولة وتقهر جيوشها، أو على الأقل - توقف مسيرتها في الزحف والانتصار -، ولكن الواقع التاريخي يقرر أن المسيرة استمرت، وأن سلسلة الانتصارات لم تنقطع في شرق وغرب وشمال وجنوب، ولعل أشهر فتح تم - بعد عزل خالد - هو فتح مصر ومنها انطلق الإسلام إلى النوبة والشمال الأفريقي.

ولكن هذه النقود الموجهة إلى العبقرية الإسلامية يجب ألا تسبنا أن هذا العطاء الذي قدمه العقاد للمكتبة العربية سيظل له قيمته الطبية بمنهجه الجديد، وعمقه الفكري، وتصديده للهجمات الشرسة العاتية التي شنها أعداء الإسلام من المستشرقين والصلبيين على القيم الإسلامية وعظماء الإسلام.

في واحدة أما عمر فقد عصى الله في ثلاث وهي: التجسس، ودخول البيوت من غير أبوابها، وعدم الاستئذان والتسليم على أهلها» فيعفو عمر عنهما (٢٦).

والقصة ظاهرة الافتعال، ولا تتفق مع ما عرف عن عمر من تلمسه الشبهات لاتقاء إقامة الحدود. وهي بدلتها لا تخدم رواء الصورة العمرية، بل قد تؤدي إلى «عكس المطلوب». فكيف يغيب عن عمر - رضي الله عنه - وهو من الأئمة المجتهدين - ما ذكره به رجل من عامة الناس من آداب اجتماعية فرضها الإسلام وأصبحت مشهورة عند الكافة؟

ومن هذا القبيل ما ذكره العقاد في «عبقرية عمر» من أن «الهيبة» كانت صفة من أبرز الصفات العمرية، وهذا صحيح، فقد كان «مهيباً» في نظر أعدائه. كما كان «مهيباً» في أنظار الرعية، ومما استدلل به العقاد على هذه «السمة» أن عمر كان «يحتجم» ذات يوم ففتح عمر فجأة، فسقط الحجام «مغشياً» عليه. وأن عمر كان يمشي ذات يوم ووراء جماعة من المسلمين، فبداه أن ينظر وراءه فجأة، فلم يبق واحد منهم «إلا وحبل ركبته ساقط» على حد قول العقاد، ولست أدري - لو صح هذان الخبران - كيف استطاع عمر بهؤلاء وأمثالهم أن يدك قواعد امبراطوريتي الفرس والروم، وأن يحقق - بهؤلاء - في عشرين سنين - من الانتصارات والفتوحات، ما لم تحققه الإمبراطورية الرومانية من قبل في ألف عام باعتراف المؤرخين الغربيين.

ولا يستقيم الخبران إلا إذا كان عمر - لا مهيباً - ولكن دمويًا جباراً - لا يعرف العدل والرحمة والإنسانية شأن الأكاسرة والقيصرية.

على أن التاريخ يروى لنا صوراً متعددة من صراحة الرعية معه وجراتها على مواجهة بعض آرائه بالاعتراض، فامرأة تحطه فيما يراه بشأن «تحديد» المهوور، وينزل على رأيا، ورجل - من عامة الناس - يعلن - على رؤوس الأشهاد - أنه «لو رأى فيه اعوجاجاً لقومه بالسيف». إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

ونأخذ على العقاد أيضاً أنه يلحف ويسرف في الدفاع عن شخصياته بصورة تخرج أحياناً على الخط الموضوعي والعقلاني، مما قد يدفع القارئ إلى الوقوع تحت تأثير ما يسمى في علم النفس «بالإيحاء العكسي».

ومثال ذلك: دفاع العقاد عن عمر حين عزل خالد بن الوليد، وكان من ركائزه الأساسية في هذا الدفاع: أن خالد «انتهى دوره التاريخي» (٢٧). وكان عزل خالد كن ضرورة